شعراء الوطنية

للأستاذ عبد الرحمن الرافعي

أصبح للناحية الوطنية فى الشعر العربى الحديث نصيب كبير فى مصر جدير بالتدوين والتقدير . فالشعراء الذين استلهموا وحى الوطنية فى قصائدهم ، واهتزت لها مشاعرهم ، واستجابوا إلى نداء الوطن فى دنيا الشعر والفن والخيال ؛ وكانو مرآة صادقة لمصرهم ، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم ، وترجمانا لهم فى آمالهم وآلامهم ، وأحاسيسهم وأهدافهم ؛ هؤلاء خليقون بالتحدث عن شخصياتهم ودراسة أشعارهم الوطنية . كل منهم بمقدار ما أنتج وأثمر وأجاد وأبدع

فمن أين نبدأ هذه الدراسة ؟

يبدو لى أن الروح الوطنية قد بدأت تغذى الشعر المصرى ، وتبعث فيه من حياتها وبهائها ، وتضفى عليه من جمالها وجلالها ، منذ أوائل القرن التاسع عشر . فإلى هذا العهد نبدأ بالحديث عن (شعراء الوطنية)

رفاعه رافع الطهطاوى

١٨٠١ — ١٨٧٣

هو أول رائد لنهضة العلم والأدب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . كان شاعراً رقيقا بالقياس إلى عصره . أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره . تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان) ومن فطرته السليمة ، وخلوص نيته . ولما جاء عهد البعثات العلمية إلى الخارج كان من حسن التوفيق أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ . فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها . فاقتبس منها الشئ الكثير ، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية

وقد استثار رحيله عن مصر عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة فى نفسه الحساسة . فجادت قريحته وهو فى باريس بقصيدة عبر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله ، والإشادة بمفاخره . قال فى مطلعها :

ناح الحمام على غصون البان فأباح شيمة مغرم ولهان

وانتقل إلى التغنى بمصر وذكر محاسنها وقال :

هذا لعمرى إن فيها سادة قد زينوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافى عليك فخارها فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفت بأن مصر لجنة وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهى شرابه لأبر كل البر فى إيمانى

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها فى مناسبات مختلفة فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش فى نفسه من أكرم العواطف وأنبلها . وقد قدمها هو بقوله « وقلت أيضا وطنية » . فالروح الوطنية تتمشى حتى فى تقديمه لقصائده قال :

يا صاح حب الوطن حلية كل فطن
محبة الأوطان من شعب الإيمان
فى أنفر الأديان آية كل مؤمن
مساقط الرؤوس تلذ للنفوس
تذهب كل بوس عنا وكل حزن
ومصر أبهى مولد لنا وأزهى عتد
ومربع ومهد للروح أو للبدن
شدت بها العزائم نيطت بها التمائم
لطبعنا تلائم فى السر أو فى العلن
مصر لها أياد علينا على البلاد
وفخرها ينادى ماالمجد إلا ديدنى
الكون من مصر اقتبس نورا وما عنه احتبس
فخر قديم مؤثر عن سادة وبنشر
زهور مجد تنثر منها العقول تجتنى
دار نعيم زاهيه ومعدن الرفاهيه
آمرة وناهيه قدما لكل المدن
قوة مصر القاهره على سواها ظاهره
وبالمهار زاهره خصت بذكر حسن

أبناؤهـا رجال لم يشهم محـال
وجنـدهم صنديد وقلبه حـديد
وخصمـه طريد بل مدرج فى كفن

وقال يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال

وعزيز الوطن نخدمه برضا فى النفس نحكمه
مال المصرى كذا دمه مبذول فى شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرها
تهدى فى نيل نظائرها بشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصرى ويشيد بمفاخره

ننظم جندنا نظما عجيبا يعجز الفهما
بأسد ترعب الخصما فمن يقوى يناضلنا ؟

رجال ما لها عـدد كمال نظامها العدد
حلاها الدرع والزرد سنان الرمح عاملنا
وهل لخيولنا شبه كرائم ما بها شبه
إليها الكل منتبه وهل تخفى أصائلنا

لنا فى الجيش فرسان لهم عند اللقا شان
وفى الهيجاء عنوان تهيم به سواهلنا

فها الميدان و (الشقرا) سقت أذن العدا وقرا
كأنا نرسل الصقرا فمن يبغى يراسلنا

مدافعنا القضا فيها وحكم الحتف فى فيها
وأهونها وجافيها تجود به معاملنا

لنا فى المدن تحصين وتنظيم وتحـين
وتأييد وتمكين منيعـات معاقلنا

وهذه الأبيات لمن خير ما قيل فى وصف الجيش المصرى . ولا شك أن رفاعة قد استلهم شعره من مفاخر الجيش فى عهده . فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويرا صحيحا لا مبالغة فيه ولا إغراق . وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يخيل لمن ينظر إليها انه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير إلى ميادين الحرب تحف بها أعلام النصر والظفر . تخوض غمار القتال بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام ، وتحابه الأخطار قوية الإيمان ، ثابتة الجنان ، مجهزة بالسلاح والمدافع « تجود به معاملنا » . ولو لم يشهد رفاعة مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر لما جادت قريحته بهذا الشعر . وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذى يعيش فيه ، والبيئة التى تحيط به ، ويصور الحياة على عهده . فكأنما هو قطعة من عصره ، أو مرآة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية ، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية

وإنك لتلمح أيضا عظمة الجيش المصرى من قول رفاعة فى قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود

يا أيهـا الجنـود والقادة الأسـود
إن أمكم حسـود يعود هامى المـدمع
فكم لكم حروب بنصركم تؤوب
لم تثنكم خطوب ولا اقتحام ممنع
وكم شهدتم من وغى وكم هزمتم من بغى
فمن تعدى وطغى على حماكم يصرع

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية فى تعريبه نشيد الحرية (المارسليز) فإن النفس لا تميل إلا إلى ماهو محبب إليها . فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعة رافع ، حتى مالت نفسه إلى تعريبه ، وإظهار مااحتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حلة عربية قشيبة

وإذا تأملت فى شعر رفاعة رافع الذى نقلنا طرفا منه وجدت فيه تقدما نسبيا إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التى سبقته كالشبراوى والعطار والخشاب وغيرهم . ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التى حمل لواءها البارودى واسماعيل صبرى وشوقى وحافظ

حقا إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقى مثلا لجاء فى المرتبة الثالثة أو الرابعة ؛ ولكن يجب ألا ننسى أن رفاعة رافع نشأ فى عصر كانت اللغة العربية وآدابها فى دور تأخرها واضمحلالها . فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر

عبد الرحمن الرافعى